حقيقة المجاز
في القرآن الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

.. لقد خُلِقَ مفهوم المجاز – هذا – من قِبَلِ بعض المفسِّرين نتيجةَ إسقاط تصوّرات جزئيّات عالم الوجود المخلوق المحسوس على غيره من العوالم الأُخرى في الوجود .. فبدلاً من اعتبار المعنى المُجرّد للكلمة القرآنيّة (من منظار علم الله تعالى لحقيقة ما تصفه وتسمّيه هذه الكلمة) معياراً وأساساً تُسقَط عليه المعاني الحسيّة التي نُدركُها .. بدلاً من ذلك ، تمّ – في مسألة المجاز – اعتبار ما نُدركُهُ من صُوَر العالم الحسّي المخلوق معياراً لغيره من العوالم الأُخرى ..

.. نحنُ البشرَ حينما نُولَدُ – في هذا العالم المخلوق المحسوس – نخرجُ من بطون أمهاتنا لا نعلمُ شيئاً عن جزئيّات هذا العالم ..

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل : ٧٨]

.. إنّنا نرى أنّ الله تعالى يقول : ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ وأنّه لا يقول (لا تعلمون أمراً) ، فالذي لا نعلمه هو صفات جزئيّات عالم الحسّ والتشيّؤ هذا .. بينما الفطرة النقيّة والروح الذي ينتمي إلى عالم الأمر ، نفخهُ الله تعالى فينا منذ ولادتنا ..

.. وحينما نُريدُ تسميةَ الأشياء التي حولنا في هذا العالم (عالم الحسّ والتشيُّؤ) فـــإنّ تسميتنا تبتعدُ عن التسمية الحقّ للأشياء بمقدارِ نقص علمنا في عاملين اثنين :

- علمنا في إدراك حقيقة هذه الأشياء إدراكاً كاملاً ..
- قدرتنا اللغويّة على صياغة ما علمناه صياغةً كاملة ..

.. ولذلك تبتعدُ تسميتنا للشيء عن التسمية الحقّ التي تصفُ حقيقةَ هـــذا الشـــيء وصفاً مُطلقاً ، بمقدار نقص علمنا بهذين العاملين الاثنين ..

.. وهكذا .. فالألفاظُ الوضعيّةُ (التي نُسمّيها بأنفسنا) ، نستخدمُها إمّـــا علـــى الحقيقة ، حينما نستعملُها في المعنى الذي وُضِعَت له ، وذلك في تعبيرِنا عن موجـــوداتِ عالمِ الخلق ، حيثُ تمّت صياغةُ تلكَ الألفاظِ من تفاعلِ نفوسِنا مع عالمِه .. وإمّـــا علـــى المجاز حينما نستخدمُها في غيرِ ما وُضِعَتْ له ، وذلك في تعبيرِنـــا عـــن معـــانٍ ودلالاتٍ معنويّةٍ لا تنتمي إلى موجوداتِ عالمِ الخلق ..

.. فحينما نقولُ لإنسانٍ : يَدُكَ طويلةٌ .. فإنّنا نعني على الحقيقةِ طولَ يدِهِ الحسيّةِ .. ونعني على المجازِ قوّةَ سيطرتِهِ على الأمورِ ، وسهولةَ وصولِه إلى مُرادِه .. فحقيقـــةُ اليـــدِ بالنسبةِ لنا في عالمِ الخلقِ ، هي اليدُ المعروفةُ من دمٍ ولحمٍ وعظم .. بينما قُدرةُ الإنســـان على تناوُلِهِ للأمورِ مسألةٌ نتصوّرُها بأذهاننا ، ولا نستطيعُ أن نُجسِّدَها بشيءٍ من أشـــياءِ عالمِ الخلق .. فالمجازُ هو الاستعمالُ المعنويُّ لهذه الكلمةِ ، والحقيقةُ هـــي اســـتعمالُها في التعبيرِ عن الحيثيّات الماديّة التي تنتمي إلى عالمِ الخلقِ الذي فيه تمّت صياغةُ لفظةِ اليد ..

.. وهكذا .. لا يمكنُ لألفاظٍ وضعيّةٍ أنْ تَتَّسعَ – على الحقيقةِ – لدلالاتٍ أكثرَ من سعةِ علمِ واضِعها ، وذلك في تسميةِ كائناتِ عالمِ الخلق .. ولا يُمكنُها أبداً أنْ تصِـــفَ موجوداتِ عالمِ الأمر ، إلاّ على سبيلِ المجاز ، ومن منظارِ علمِ واضعِ تلك الألفاظ ..

.. وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى مسألةِ تسميةِ البشرِ للأشياءِ بأسماءِ ما أنزلَ اللهُ تعالى بها من سلطان ، فكانت هذه الأسماءُ بعيدةً كلَّ البعدِ عن حقيقةِ الأشياءِ المُسمّاة ..

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣]

.. وإضافةً إلى أنّ تسميتَنا للأمورِ والأشياءِ ناقصةٌ عن التسميةِ الحق ، بسببِ علمِنا الناقصِ عن العلمِ الكاملِ بحقيقةِ هذه الأشياء ، فإنّ هذه التسميةَ ذاتُ خصوصيّةٍ فرديّةٍ وقوميّة ، فقد تختلفُ تسميةُ الشيءِ ذاتِه من فردٍ لآخر ، ومن أمّةٍ لأُخرى ، حسبَ المناظيرِ المختلفةِ التي تنظرُ منها الأممُ وأفرادُها إلى هذا الشيء ، وحسبَ درجاتِ علمِهم بماهيّتِهِ عبرَ الأزمنة ، وحسبَ قُدُرَاتِهم المختلفةِ على الصياغة ..

.. ولمّا كانت حقيقةُ الأمورِ والأشياءِ ، فوقَ الرؤى المختلفةِ التي تنظرُ منها المخلوقاتُ إلى هذه الأمورِ والأشياء ، ولمّا كانتْ حقيقةُ الأمورِ والأشياءِ لا يعلمُها أحدٌ كعِلمِ خالقِها جلّ وعلا ، ولا يستطيعُ أحدٌ غير الله تعالى ترجمةَ هذا العلمِ المطلقِ إلى صياغةٍ مطلقةٍ تُصوّر تصويراً مُطلقاً حقيقة هذه الأمورِ والأشياء ، فإنَّ التسميةَ الحقَّ والتي تصفُ وصفاً مطلقاً حقيقةَ المُسمّى لا تكون إلاّ منَ الله تعالى ، فارتباطُ الذواتِ المسمّاةِ من الله تعالى بأسمائِها ، يماثلُ تماماً ارتباطَ المادّةِ بصورتِها ..

فحتى تكونَ المُفرداتُ القرآنيّةُ تِبياناً لكلِّ شيءٍ ، وكاملةً ومطابقةً مطابقةً تامّةً للمعنى ، لا بُدَّ أن يكونَ صائغُها ، فوقَ عالمي الخلقِ والأمرِ ، على حدٍّ سواء ..

.. فلمّا كانت الكلمةُ المقولةُ الوعاءَ الذي يحوي المعنى ، فإنَّ التسميةَ المُطلقةَ تقتضي عِلماً مُطلقاً في المعنى (الكلام) ، وعِلماً مُطلقاً في الوعاءِ المَصوغِ لاحتواءِ المعنى (القول) .. وأيُّ ابتعادٍ عن المطلقِ في المعنى (الكلام) أو في الوعاء (القول) ، تَفْقِدُ التسميةُ مُطلقَها ..

.. ولمّا كان القرآنُ الكريمُ تِبياناً لكلِّ شيء ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ، فهذا يقتضي أن مفاتيحَ مُسمّياتِ الأسماءِ كلِّها في هذا الكون تحمِلُها المفرداتُ القرآنيّة .. ولمّا كان آدمُ عليه السلام في عالمِ ما وراء المادة والمكان

والزمان قبل حُلولِ نفسِهِ في جسدِه ، قد علّمهُ اللهُ تعالى الأسماءَ كلّها (كما سنرى إن شاء الله تعالى) ، فهذا يقتضي أن تكونَ المفرداتُ القرآنيّةُ علّمها اللهُ تعالى لآدمَ عليه السلام وهبطَ بها إلى الأرض ..

.. وماهيّةُ القرآنِ الكريمِ كونَه الوحيد – من بين الكتب السماويّة – قولَ الله تعالى ، وكونَه يتعلّقُ مباشرةً بصفاتِ اللهِ تعالى ، وكونَهُ يحملُ مفاتيحَ أسرارِ الكون ، وكونَهُ معجزةً مستمرّةً حتى قيامِ الساعةِ ، وكونَهُ منهجَ هدايةٍ للبشريّةِ جمعاء ، وكونَهُ يحملُ عُمقَ التأويلِ الذي لا يعلمُهُ إلاّ اللهُ تعالى ... وكونَهُ ينفردُ – من بين الكتب السماويّة – بالتنزيل(*) من عندِ اللهِ تعالى ، في حين يشتركُ مع الكتبِ السماويةِ الأخرى بالإنزالِ من عندِ اللهِ تعالى .. كلُّ ذلك يقتضي أن تكونَ كلماتُهُ فطريّةً مُوحاةً من الله تعالى ، علّمها لآدمَ عليه السلام قبل حُلولِ نفسِهِ في جسده ، في العالمِ الذي لا يحوي المتناقضات ، والذي ينتمي إليه القرآنُ الكريم ..

.. فتنزيلُ القرآنِ الكريمِ (من الفعل نَزَّلَ) من عندِ اللهِ تعالى ، هو انتقالُهُ إلى عالَمِنا دونَ أيِّ تغييرٍ وارتسامٍ بمادّةِ هذا العالم ، وبالتالي فمفرداتُهُ هي ذاتُها نَزَلتْ من السماء ، وَجُمَلُهُ هي ذاتُها نزلتْ من السماء ، فالقرآنُ الكريمُ ليس معانيَ من اللهِ تعالى صاغَتْها المخلوقاتُ بقالبٍ لُغويٍّ كالكتبِ السماويّةِ السابقة ، إنّما هو معانٍ من الله تعالى صاغها الله تعالى بقالبٍ لغويٍّ ..

.. وكلُّ ذلك يُبيّنُهُ لنا القرآنُ الكريم ، من خلالِ تفرُّدِ القرآنِ الكريمِ عن غيرِهِ من الكتبِ الأخرى بكونه قولَ الله تعالى ، أي صياغةً لُغويّةً من عندِ الله تعالى .. وبتفرُّدِه أيضاً عن غيرِهِ من الكتبِ السماويّةِ بكونِهِ تنزيلَ اللهِ تعالى ، أي نزولاً كما هو تماماً دونَ أيِ تغييرٍ أو تبديل ، فهو كلامُ اللهِ تعالى ، وأنزلَهُ الله تعالى ، شأنُهُ بذلك شأنُ الكتبِ

(*) – بيّنتُ هذه المسائل بشكلٍ مُفصّل في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) ، وفي النظريّة السادسة (سُلَّم الخلاص) ، وفي كتاب : المُعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) ..

السماويّةِ الأخرى ، ولكنَّهُ – أيضاً – قولُ اللهِ تعالى وتنزيلُهُ ، أي تنزيلُ الصياغةِ ذاتِها دون أيِّ تغييرٍ أو تبديل ..

.. ولذلك فكلُّ المفرداتِ القرآنيّةِ تصفُ الأمورَ والأشياءَ – على الحقيقةِ – وصفاً مُطلقاً ، وما نتوهَّمُهُ من مجازٍ لبعضِ مُفرداتِه ناتجٌ عن كونِ تصوّراتِنا لا تخرجُ عن إطارِ الصورِ الحسيّةِ التي اكتسبناها من عالمِ الخلق (عالم المادّة والمكان والزمان) ، وعن كوننا جاهلينَ لحقيقةِ الأمورِ في ما وراء عالمِ الخلقِ الذي نعيشُ فيه ..

.. فحينما نقرأُ قولَ الله تعالى .. ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء : ٢٩] .. نَحْسَبُ أنَّ كلمةَ ﴿ **يَدَكَ** ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ قد اُستخدِمَتْ على سبيلِ المجاز .. فالمعنى الحقيقيُّ لليدِ لا نستطيعُ تصوُّرَهُ إلاّ لليدِ الحسيّةِ المعروفة ، ولذلك نُسقِطُ تصوّراتِنا الحسيّةَ هذه على المعنى الحقيقيِّ لهذهِ الكلمةِ فنزعُمُ أنّها اُستخدِمَت على المجاز ..

.. لكنْ .. إذا أدركنا أنَّ أنفُسَنا جَوهرٌ معنويٌّ موجودٌ قبلَ خلقِ أجسادِنا ، وقبلَ حُلولِ هذه الأنفسِ في تلكَ الأجساد .. وإذا أدركنا أنَّ هذه الأنفُسَ لها صُوَرُها الخاصَّةُ بها قبلَ خلقِ أجسادِنا ، حيثُ يقولُ تعالى ..﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ** ﴾ [الأعراف : ١١] .. وإذا أدركنا أنَّ هذه الأجسادَ الحاملةَ لأنفُسِنا مُجرَّدُ أوعيةٍ ماديّةٍ لارتسامِ صُوَرِ أنفُسِنا في عالمِ المادّةِ والمكانِ والزمان (كما سنرى إن شاء الله تعالى في الفصل القادم) .. حين ذلك .. ندركُ أنَّ قَوْلَهُ تعالى ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ** ﴾ ، هو أمرٌ إلهيٌّ يُصوِّرُ تصويراً مُطلقاً على الحقيقةِ وليس على المجاز ، ما يُريدُهُ اللهُ تعالى لِحركةِ النفسِ المُجرَّدةِ في توجيهِها لما يقعُ تحت سيطرتِها ، كي تبتعدَ عن البُخلِ والإسراف .. فأداةُ القوّةِ والسيطرةِ للنفسِ هي يدُ هذه النفس ، والتي تتجسَّدُ في عالمِ المادّةِ والحسِّ بيدٍ حسّيةٍ هي اليدُ التي

نعرفُها .. فلمّا كان السياقُ القرآنيُّ يتعلّقُ بقيمٍ معنويّةٍ تتأرجحُ بين البخلِ والإسراف ، وتتعلّقُ بجوهرِ نفسِ الإنسانِ ، فلا بُدَّ أنْ تتعلّقَ دلالاتُ كلمةِ ﴿ يَدَكَ ﴾ في هذه الآيةِ الكريمة بالنفسِ المجرّدةِ ، وليس بارتسامِها المادّي في الجسد ..

.. وقد وردَ هذا المعنى الحقيقيُّ لليدِ في قولِهِ تعالى ..

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥ – ٤٧]

ولكن حينما يكونُ السياقُ القرآنيُّ متعلّقاً بمسائلَ من عالمِ الخلق ، فإنَّ هذه الكلمةَ تصفُ على الحقيقةِ أيضاً اليدَ الماديّةَ التي هي عضوٌ من الجسدِ ، حيث الجسدُ صورةُ ارتسامِ وعاءِ النفسِ في عالمِ المادّةِ والمكانِ والزمان .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .. فالمعنى المُجرَّدُ لكلمةِ اليدِ هو ذاتُهُ ، ولكنَّ الذي يتغيّرُ هُوُ استخدامُها في العوالمِ المختلفة ، فالاختلافُ يعودُ إلى تمايزِ تلكَ العوالمِ عن بعضِها .. ولذلك فهذه الكلمةُ تحملُ دلالاتٍ للمَعْنَيَين ، المُجرَّد والحسّي ، بآنٍ واحد .. يقولُ تعالى .. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٢٤]

.. وهكذا .. فعدمُ إدراكِ حقيقةِ فطريّةِ المُفردةِ القرآنيّةِ ، وبأنّها من صياغةِ اللهِ تعالى ، لتحملَ معنىً مُجرّداً لهُ ارتساماتُهُ في العوالمِ المُختلفةِ ، وعدمُ إعادةِ المعنى والدلالات التي تحملُها الكلمةُ القرآنيّةُ إلى حقيقةِ العالَمِ الذي تنتمي إليه المسألةُ التي تصفُها وتسمّيها المفردةُ القرآنيّةُ ..كلُّ ذلك أدّى إلى أوهامِ التجسيدِ عندَ بعضِهم ، وإلى أوهامِ المجازِ عندَ بعضِهم الآخر ..

.. فحينما نقرأُ قولَ الله تعالى .. ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طـــه : ٥] .. علينا أنْ نعلمَ أنَّ الاستواءَ هنا يُحمَلُ على فاعِلِه ، وهو اللهُ تعالى ، الذي هو فوقَ عالمي الخلقِ والأمرِ على حدٍّ سواء .. ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .. وأيُّ تصورٍ لهذا الاستواءِ بمعاييرِ عالَمِنا الماديِّ الحسيِّ ، هو تجسيدٌ لله تعالى ، ومحاولةٌ لفرضِ معاييرِ عالَمِنا الماديِّ على الذات الإلهيّة ..

فالفارقُ بين استواءِ اللهِ تعالى على العرش ، وبين استواءِ سفينةِ نوحٍ – على سبيل المثال – يُوازي تماماً الفارقَ بين الذاتِ الإلهيّة وبين مادةِ سفينةِ نوح .. ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : ٤٤] .. مع العلمِ أنّ المعنى المُجرّدَ لكلمةِ ﴿ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ ، هو ذاتُهُ ، ولكنَّ الذي يتغيّرُ في دلالاتِ هذه الكلمةِ القرآنيّةِ هو الذاتُ التي تصفُها ، والعالَمُ الذي تنتمي إليه هذه الذات ، أي استخدامُ هذه الكلمةِ في الجملةِ القرآنيّة ..

وكذلك الأمرُ بالنسبةِ لكلمةِ ﴿ ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ، فالمعنى المُجَرَّدُ لهذه الكلمةِ هو ذاتُهُ ، ولكنَّ الفارقَ بين العرشِ الذي استوى اللهُ تعالى عليه من جهةٍ ، وبين العرشِ الذي رفعَ يوسفُ عليه السلام أبويه عليه .. ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وعرشِ ملكةِ سبأ .. ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] .. هذا الفارقُ هو ذاتُهُ الفارقُ بين اللهِ تعالى من جهةٍ ، وبين يوسُفَ وملكةِ سبأٍ والعالَمِ الذي ينتميان إليه من جهةٍ أُخرى ..

.. وضرورة إدراك مرتبة الوجود للموصوف بالكلمة القرآنيّة ، وحقيقةِ المعنى المُجرّد الذي تحملُه هذه الكلمة في السياق القرآني المُحيط ، يتجلّى في إدراكنا للمعـــنى المُجـــرّد الذي تحملُه كلمة ﴿ لَتَمُرُّونَ ﴾ في النصّ القرآني التالي ..

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٣ – ١٣٨]

.. والتفسير التاريخي الموروث ، بأنّ دلالات الآيتين الكريمتين ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، تتعلّقُ بسياقٍ تاريخيٍّ مُحدّدٍ بإطار الزمان والمكان ، ويخصّ أشخاصاً مُحدّدين ، كانوا – في الماضي أثناء فترة الرسالة – يمرّون مروراً مكانيّاً من المنطقة التي كان فيها قومُ لوط .. هذا التفسير ، يُناقضُ صياغة هاتين الآيتين المُوجّهة لكلّ البشر في كُلِّ زمانٍ ومكان .. فقولُهُ تعالى ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ ﴾ ، خطابٌ لكلِّ البشريّة دون استثناء ، في كلِّ زمانٍ ومكان .. وقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هو – أيضاً – خطابٌ من الله تعالى للبشريّة جمعاء ..

.. دلالاتُ هاتين الآيتين ندركهما في إطار التصوير الإلهيّ لنوازع النفس البشريّة (التي تنتمي إلى عالم الخلق غير المحسوس) ، بمرورِها النفسيِّ على إمكانيّة فعل حيثيّات الفاحشة التي فعلها قوم لوط ..

.. بمعنى : أنَّ الله تعالى يُنبّه النفسَ البشريّة ويُحذّرها في بداية الصباح والليل ، حيث الوقت الغالب لِلِّقاءِ بين الرجل والمرأة ، من أن تفعل فعل الفاحشة التي فعلها قوم لوطٍ عليه السلام ..

.. فالنتيجة التي وصل إليها قوم لوطٍ بفعلتهم هذه ، بيّنها الله تعالى لنا في كتابه الكريم ، وبالتالي ففي اللقاء بين الرجل والمرأة ، حيث إمكانية المرور من فعل هذه الفاحشة ممكنة ، عند هذا الحدّ من إمكانيّة الانزلاق بفعل فاحشة قوم لوط ، يُحذّرنا اللهُ تعالى ، بأنّ غضبَ الله تعالى الذي أنزله على قوم لوط ، ومصيرَهُم في الآخرة ، لا يختلف عنه مع من يفعل فعلتهم التي فعلوها ..

.. فاللهُ تعالى يقول للبشريّة جمعاء من خلال هاتين الآيتين : إيّاكم من الانزلاق في فعل فاحشةِ قوم لوط ، فمصيرُهم – في الدنيا والآخرة – بيّنتُه لكم في القرآن الكريم ، ويدركُهُ كلّ عاقل ، وناموسي لا يتغيّر ولا يتبدّل ، فمن يفعل هذه الفاحشة مصيرُه لا يختلف عن مصير قوم لوط ، وعليكم أن تعقلوا هذه الحقيقة ..

.. وهكذا فالكلمةُ القرآنيّةُ بحقيقتِها المُجَرَّدةِ عن العالمِ الذي ينتمي إليه الموصوفُ بها ، دلالاتُها ثابتةٌ مُطلقةٌ مُتعلّقةٌ بعلمِ الله تعالى المُطلقِ المحيطِ بحقيقةِ الموصوفِ .. ودلالاتُها في كُلِّ عالمٍ من عوالمِ الوجودِ تصفُ وصفاً مُطلقاً حقيقةَ إدراكنا لارتسامِ صفاتِ الموصوفِ بها في ذلك العالم .. وكلُّ ذلك ضمنَ صياغةٍ قرآنيّةٍ تحملُ من الدلالاتِ والمعاني ما يُناسبُ إدراكَ الأجيالِ المتلاحقةِ حتى قيامِ الساعة ..

المهندس عدنان الرفاعي